الدكتورة نبيلة إبراهيم

د. نبيلة إبراهيم

«قصصنا الشعبي.. من الرومانسية إلى الواقعية»

هذا لون جديد من الأدب تقدمه إحدى كاتباتنا العربيات، إنه دراسة القصص الشعبي العربي الحي، ولقد كشف التحليل المورفولوجي للحكاية الشعبية عن اختلافها الجوهري عن الحكايات الخرافية، وقد تمثل هذا التفسير في توضيح علاقة كل نمط بنفسية الشعب الذي كان رومانسياً بالأمس.. ثم أصبح واقعياً بعد ذلك.

والتعبير الرومانسي هو اصطلاح استعملته الكاتبة للتعبير عن الحكايات الخرافية من الأدب الذاتي.

إن الأدب الشعبي ليس مجرد تعبير يحتفظ به الشعب لنفسه، بل هو صرخة عالية تدعونا إلى أن نستمع إليها.. وأن نتفهمها وأن نتعاطف معها فإذا فعلنا ذلك.. أمكننا أن ندَّعي أننا نضع بقدراتنا العلمية شيئاً إيجابياً يسهم في الكشف عن نفسية الشعب، وما يختلج بها من آلام وآمال. وتقول د. نبيلة إبراهيم:

«ولا يسعني عند ذلك سوى أن أعبر عن أملي الصادق في أن يكون هذا العمل بداية أعمال كبيرة يحققها الباحثون من أبناء شعوبنا العربية في مجال دراستنا الشعبية التي ما زالت تحبو في طريق شائك.. وطويل.

تحليل كامل.. للشخوص الرئيسية في الحكاية الخرافية:

تحتوي الحكاية الخرافية على الشخوص الرئيسية التالية:

١. **الشخصية الشريرة:** وتتمثل وظيفتها في إيذاء البطل أو أحد أفراد الأسرة أو تتمثل في مناوأة البطل.

٢. **الشخصية المساعدة:** وهي تساعد البطل في القضاء على الشر، وفي تحقيق المهمات الكبيرة وفي تغيير حالة البطل، كأن تسكنه قصراً، أو تساعده في الهروب.

٣. **الشخصية المانحة:** ووظيفتها اختيار البطل ـ ومنحه الأداة السحرية.

٤. **شخصية الأميرة أو الزوجة بصفة عامة:** وأفعالها تتوزع بينها وبين أبيها ـ إذ قد يأمر الأب البطل أن يهدم الجبل، ويشيد قصراً لابنته قبل أن يتزوجها.

٥. **الشخصية التي تبعد البطل في بداية الحكاية:** فإما أن تنفيه كما فعلت الأم عندما أمرت الأب بترك ابنته في الخلاء (حكاية الرجل الذي ولد بنتاً) وإما أن ترسله في مهمة كما أرسلت الأم ابنتها مع أبيها تحتطب فكان من نتيجة ذلك أن تزوجت الكلب (حكاية البنت التي تزوجت كلباً).

٦. **شخصية البطل:** وتتجلى في المغامرة والاستجابة للقوة المانحة والقضاء على القوة الشريرة، والزواج أو إحضار الشيء المرغوب فيه بصفة عامة.

٧. **شخصية البطل المزيف:** وهو الذي يدَّعي أنه البطل الحقيقي للحصول على مغنمه، كما ادَّعت الأم لابنها أنها زوجته (حكاية الرجل الذي ولد بنتاً).

وهذه هي الشخوص المميزة في الحكاية الخرافية.

ومثال ذلك.. نجد أن الأم تقوم بدور الشخصية الشريرة، وشخصية البطل المزيف معاً في حكاية الرجل الذي ولد بنتاً، وحكايتها تأتي كما يلي:

ـ كان هناك رجل يعيش مع زوجته دون أن يرزقهما الله بأبناء، وفي يوم من الأيام سمعت الزوجة رجلاً ينادي على تفاح يجلب الحمل.. فصاحت به، وطلبت منه أن يبيعها تفاحتين وضعتهما في مكان ما من البيت وانصرفت لعملها، وبعد وقت جاء زوجها من العمل، وكان جائعاً فلما أبصر بالتفاحتين أكل إحداهما في نهم. وعندما علمت الزوجة بما حدث.. صرخت في وجه زوجها، وأخبرته بأنه قد أكل تفاح الحمل.. ولا مفر من أن تظهر عليه أمارات الحمل بعد ذلك، ولهذا نصحته، خوفاً من الفضيحة، بأن يرحل بعيداً عن البيت ويأخذ معه ثوباً من الحرير.. وآخر من الخيش، فإذا ولد ابناً لفّه في ثوب الحرير وأحضره وإذا ولد بنتاً فعليه أن يلفّها في ثوب الخيش ويتركها.

فأخذ الرجل القماش ورحل إلى مكان قفر مجهول. واستقر هناك حتى ولد الطفل من بطن رجله، وكان بنتاً فلفّها في ثوب الخيش، وتركها وشأنها وعاد إلى بيته، وبينما كان صقر يحلّق في الفضاء أبصر الطفلة الصغيرة تبكي فحملها وطار بها ووضعها في رفق فوق شجرة عالية.. وظل يرعاها حتى كبرت.

وذات يوم خرج ابن السلطان يتنزه ممتطياً جواده، حتى وصل إلى نبع بجوار الشجرة التي تجلس فوقها الفتاة، فتقدم من النبع كي يسقي جواده ولكنه فوجيء بأن الجواد قد وقف ساكناً.. مطأطيء الرأس، فلما نظر ابن السلطان إلى الماء أبصر صورة فتاة تنعكس على صفحته، فلما رفع رأسه إلى أعلى أبصر فتاة رائعة الجمال تجلس فوق الشجرة فطلب منها أن تنزل فرفضت.

عند ذلك عاد ابن السلطان إلى بيته وقد أصابه السقم نتيجة لوقوعه في حب الفتاة، وقد ظل فترة عازفاً عن الطعام وعن الكلام حتى حار أهله في أمره. وأخيراً أخبرهم بعشقه للفتاة التي تجلس فوق الشجرة وتمنى لو أحضروها إليه، عند ذلك عرضت عليه امرأة عجوز مساعدتها، وطلبت منه أن يحضر لها شاة وسكيناً أثلم، وعليه أن يصطحبها ممتطياً جواده حتى يصل

إلى تلك الشجرة، ثم يختفي بين الأشجار وينتظر ما تفعله. سارت العجوز والشاب معاً حتى وصلا إلى الشجرة وهناك جلست العجوز تحت الشجرة، وأخذت تصطنع أنها تذبح الشاة من وسطها وكانت البنت تنظر إليها باهتمام.. من فوق. عند ذاك صاحت بالعجوز قائلة: من رقبته يأم العجوز من رقبته.. فأخذت المرأة العجوز تحاول مرة أخرى ذبح الشاة من أرجلها، ومرة أخرى صاحت بها الفتاة.. من رقبته يأم العجوز من رقبته، فحاولت العجوز أن تذبحها من رأسها، وأخيراً طلبت المرأة العجوز من الفتاة أن تحضر وتعينها على ذبح الشاة.. حيث إن نظرها ضعيف لا يمكنها إصابة الهدف، عند ذاك صاحت الفتاة على الشجرة قائلة:

يا شجرة اقصري اقصري لِمَ تبقين طول خصري، فهبطت الشجرة بالفتاة، وفي تلك اللحظة ظهر الشاب من مكان كان قد اختبأ فيه، واختطف الفتاة ووضعها على الحصان.. وسار بها حتى وصل إلى أمه، وهناك تزوجها وقرَّبها له. وبعد وقت شاء ابن السلطان أن يخرج للحج فترك زوجته في رعاية أمه.. بعد أن أوصى بها خيراً، ووعدته الأم أن ترعاها إلى أن يعود لكن ما كاد الابن يبرح البيت حتى أخذت الأم تكيل العذاب لزوجة ابنها ألوانا ـ وفضلاً عن ذلك، فإنها حرمتها من الطعام. فلما طلبت منها الزوجة.. بعض الأكل رفضت أن تقدم إليها شيئاً إلاّ إذا أعطتها عيناً من عينيها.. فلما جاءت الزوجة مرة أخرى.. وطلبت الطعام عادت الأم فطلبت عينها الثانية، ثم طلبت بعد ذلك ساقيها ويديها، وفي النهاية ألقت بها في الطريق. وبينما كانت الزوجة تبحث في القمامة عن كسرة خبز.. وقعت يدها على خاتم، فلما مسحته ظهر لها شبح أخبرها أنه خادم هذا الخاتم السحري، وأن عليها أن تطلب وعليه أن يجيب. فطلبت إليه أن يرجع إليها عينيها ويديها ورجليها. وفي لحظة.. عاد للفتاة شكلها الطبيعي، ثم طلبت منه بعد ذلك أن يسكنها قصراً مواجهاً لقصر ابن السلطان.. ولكن يفوقه بهاء، وأن تكون حديقة القصر ملأى بأشجار الفاكهة التي تثمر على مدار السنة.. وفي لحظة.. وجدت الزوجة نفسها تسكن هذا القصر.

وبعد وقت عاد الزوج من الحج، وكانت الأم قد تناولت عقاراً سحرياً أرجع إليها شبابها ثم ادَّعت لابنها أنها زوجته، فلما سألها عن أمه أخبرته أنها توفيت في أثناء غيابه.. وأنها قامت بدفنها فصدَّقها الابن وعاشر الأم معاشرة الأزواج، وبعد فترة حملت الأم وتوحمت على عنقود عنب في غير أوانه، فكان لا بد من الحصول عليه من القصر المجاور وأرسل ابن السلطان الخادم يطلب من صاحبة القصر عنقوداً من العنب، فذهب الخادم وقال لصاحبة القصر:

«يا ست يا ستنا ياللي قصرك جنب قصرنا ـ إدِّينا قطف عنب للوحيمة اللي عندنا»

عند ذاك ردت عليه صاحبة القصر قائلة:

أبويا حبل فيَّ ـ والصقر والطاووس عششوا عليَّ، وابن السلطان حبني واشتهاني ـ واتجوز أمه عليَّ، يا مقص قص لسانه لأحسن يروح يفتن عليَّ.

وفي الحال هوى مقص على لسان الخادم فقطعه، وعاد الخادم خاوي الوفاض إلى سيده. فلما سأله سيده عن عنقود العنب تلعثم في الكلام ولم يفهم سيده شيئاً مما قال، عند ذاك أرسل ابن السلطان خادماً ثانياً وثالثاً، فحدث لهما ما حدث للخادم الأول. فذهب ابن السلطان بنفسه إلى صاحبة القصر، وفوجىء بطبيعة الحال ـ عندما وجد نفسه أمام زوجته الحقيقية، وقصت عليه الزوجة قصتها مع أمه، فعاد ابن السلطان بها إلى القصر وقتل أمه وتزوج بزوجته الحقيقية مرة أخرى.

* * *

وهكذا نرى إلى أي حد تسهم كل عناصر الحكاية الخرافية في التعبير عن هدفها سواء أكانت تلك العناصر مرتبطة بشكلها أم بصورها.. أم بلغتها؟

إن الحكاية الخرافية التي تهدف إلى الوصول بالبطل إلى الحياة الكاملة الجميلة، والتي تستخدم أسلوباً سحرياً في سبيل تحقيق هذا الهدف، تعد بلا شك نمطاً رومانسياً بين أنماط التعبير الشعبي، حيث إنها تحكي لنا عن قصة

صراع الإنسان مع نفسه ولكنه صراع يخلو من المعاناة من الإحساس بالألم، لأن مصير البطل الجميل مقدر له من قبل. إننا عندما نفهم مغزى رموز الحكاية الخرافية، نحس حقاً بالمشقة التي يتحتم على الإنسان أن يعيشها في سبيل تحقيق الشخصية الكاملة، ولكن الإنسان في العالم الواقعي لا يستطيع أن يحقق في سهولة ويسر.. ما يحققه البطل الخرافي.

* * *